

الكتابة التاريخية في مصر خلال عصر المماليك

ق (7-8هـ/13-14هـ)

د / قدور وهراني، جامعة تلمسان

ملخص:

عرفت الكتابة التاريخية في عصر المماليك بمصر خلال القرنين (7-8هـ/13-14م) تطورا كبيرا فظهر مؤرخون كبار، وتنوعت صنوف الكتابات واختلفت أغراضها ومواضيعها، فكانت مادتها جديرة بالدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: الممليك -الكتابة التاريخية -المنهج - المؤلفات - علم التاريخ .

Historical Writing in Egypt during the Mamluk Period (13th -14th centuries A.D., seventh to eighth centuries A.H.)

Historical writing in Egypt during the Mamluk period (7th-8th/13th-14th centuries) witnessed great development. Several major historians appeared, the genres of historical writing were diversified, and different subjects and aims of historical writing developed. This material is worthy of analysis and study.

Key Words: Mamluks, Historical Writing, Method, Works, Historiography

عرفت مصر منذ المراحل الأولى للوجود الإسلامي على أرضها اهتماما خاصا بالكتابة التاريخية، فقد كانت سير الفتوحات الإسلامية على مدى أكثر من قرن قائمة على الرواية الشفهية، ولم تظهر الرواية المكتوبة قبل أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة، وأخذت روايات التاريخ منذ ذلك الحين تنمو وتزدهر، مع ظهور نخبة من المؤرخين¹.

فقد عرف في هذه الفترة عبيد الله بن أبي جعفر (ت: 128هـ/742م)، والليث بن سعد² (ت: 175هـ/789م)، ويوحنا النقيوس القبطي (ق2هـ/7م)، وظهرت في نهاية هذه المرحلة تأليف ومدونات في أخبار الفتح الإسلامي لمصر، وكان ذلك على يدي أبي قبيل بن هانئ المعارفي (ت: 199هـ/813م) الذي يُعدُّ من أقدم الرواة في مصر. كما يجد الإشارة ليزيد بن حبيب (ت: 132هـ/746م) الذي كان مصدرا مهما للكثير من الروايات التي نقلت عن الفتح الإسلامي لمصر، نذكر منهم ابن عبد الحكم (ت: 257هـ/872م) والكندي (ت: 256هـ/873م)³.

مهَّد هؤلاء المؤرخون لظهور مدرسة المصرية للتأليف التاريخي وقد كان غالبية مواضيعها في هذه الفترة تتحدث عن أحداث ما قبل الإسلام وتاريخ السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الملاحم والفتن والتنبؤات، وأحداث فتح مصر وأخبارها بعد الفتح، وبعض الروايات عن الخطط وتاريخ القضاة والتنظيمات المالية والإدارية في مصر، وشيء من فتوح إفريقية⁴، ويمكن أن نميز في هذه الفترة بين تيارين مختلفين في الرواية التاريخية⁵:

- تيار الخبر الإسلامي الذي، وهو ما يمكن أن نسميه مدرسة الفسطاط وكانت مادته الأساسية مستمدة من فتوح مصر والمغرب يمازجها الكثير من تاريخ القديم الأسطوري.

- تيار القصص الذي يعتمد على الخرافة والاساطير والملاحم، وقد عرف أصحابه بالقصاص.

وقد كان علم التاريخ في هذه الفترة على صلة واسعة بالعلوم الأخرى كالفقه والحديث على وجه الخصوص، وقد تبلورت ثقافة ثقافة المؤرخين في تطبيقهم لمنهج الإسناد المستعمل في عادة في علم الحديث.⁶

ونأتي بعد ذلك إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث نلاحظ أن مؤرخي هذا القرن كانت لهم مصنفات في التاريخ أكثر من مؤرخي القرنين السابقين، ومما يميز هذه الفترة هو طغيان التأريخ المحلي المصري على مؤلفات هذه الفترة أمام تراجع الاهتمام بكتابة تاريخ صدر الإسلام، وقد برز في هذه الفترة عميد المؤرخين "أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي"⁷ (ت: 257هـ / 872م)، وهو واضع الحجر الأول في تاريخ مصر الإسلامية، لقد وضع ابن عبد الحكم اللبنة الأولى من المدرسة التاريخية المصرية، فلم يكن التاريخ المصري يتعدى شكل الرواية الشفهية، يتوارثها جيل بعد جيل، وكانت الرواية لاتزال حية في صدور الرواه والمحدثين، فكان تديونها يومئذ أقرب للتحقيق والضبط⁸، وقد استفاد من مؤلفاته الكندي ثم تداولها المصريون تباعاً بالنقل، منذ ابن زولاق (ت: 387هـ / 997م) والمسبجي (ت: 420هـ / 1030م)، على ابن وصيف شاه (عاش في القرن 7هـ / 13م)، وابن دقماق (ت: 809هـ / 1407م)، والمقريزي (ت: 843هـ / 1441م)، وابن حجر (ت: 952هـ / 1550م) وابن تغري بردي (ت: 874هـ / 1470م) والسخاوي (ت: 902هـ / 1499م)، والسيوطي (ت: 911هـ / 1505م).⁹

ويمكن القول أن مدرسة التاريخ الإسلامي بمصر، قد استكملت أسباب نشأتها ومراحلها التأسيسية بظهور هذا المؤرخ الكبير، وذلك لأن المؤرخين الذين سبقوه تركوا مادة هائلة ولكن كان ينقصها الترتيب والتنسيق، قبل أن تستكمل هذه المدرسة شخصيتها وسماتها على يده¹⁰.

لقد تطورت الكتابة التاريخية في ذلك الوقت تطورا هاما، وقد كان هذا التطور جزءاً من التطور الثقافي العام الذي عرفه المجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، وقد كان هذا التطور تطورا إسلاميا خالصاً، بحيث لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية¹¹.

وبقي الإهتمام بالتاريخ الإقليمي حاضراً، وتفسير ذلك هو الاستقلال السياسي اذي تمتعت به مصر في تلك الفترة، منذ اواسط القرن الثالث.¹²

وقد كان لسهولة التنقل بين أنحاء الدولة الإسلامية، حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة، على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ زيادة على رغبتهم في رؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها. فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمشاهدة¹³.

ويمكن القول أن القرن الثالث الهجري يعد مرحلة انتقال بين ما كان في القرنين الأول والثاني الهجريين، وبين ما ظهر من علوم وفنون في القرون التالية¹⁴.

وبما أن الظروف التاريخية هي انعكاس للأجواء السياسية فإن الاضطرابات السياسية التي عرفتها مصر وتحول السلطة، وتغلب بنو إخشيد بعد ذهاب الدولة الطولونية، ثم انتقال الدولة الفاطمية إليها من المغرب، كانت لها تأثير واضح على حركة الكتابة التاريخية وتوجهات المؤرخين.

لقد كانت هذه الفترة موضوع اهتمام جماعة من أعلام المؤرخين والرواة الذين شهدوه، أو عاشوا قريبا منه، وانتهت إليها بعض آثارهم¹⁵. وكان في طليعة هؤلاء "محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي"¹⁶ (ت: 350هـ/960م)، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الولاة والقضاة"، ويشتمل كتابه على تاريخ الولاة والقضاة الذين تولوا حكم مصر منذ الفتح حتى زمن المؤلف، ومن كبار مؤرخي المرحلة "أبو محمد بن حسين بن حسن بن زولاق اللبثي المصري"¹⁷ (ت 387هـ-997م) الذي كتب ذيلا لكتاب قضاة مصر للكندي¹⁸.

كذلك شهدت المدرسة المصرية في كتابة التاريخ خلال القرن الرابع الهجري، تطورا هاما في الكتابة التاريخية، إذ بدأ المنهج التاريخي يأخذ شكلا واضحا تحددت فيه معالمه الأساسية، حيث انتشر التدوين بصفة عامة، وتحرر المؤرخون فبعد أن كان مجرد ناقل للرواية التاريخية ولعب دور الإخباري الذي ينقل المعلومة التاريخية مع ذكر سلسلة الرواة الذين نقلوا هذا الخبر، فأصبح البحث عن ذات الخبر دون التقيّد بسلسلة الرواة الذين طالت بفعل مرور الزمن، وتمحيص الخبر والتأكد من صحته من خلال المعلومة التي يحملها، وهكذا تحولت المدرسة المصرية إلى محاولة استيعاب الحدث التاريخي، وكان الأمير عز الدين المسبجي في مقدمة أساتذة هذه المدرسة التاريخية الجديدة¹⁹.

واتضح هذا الأسلوب في الأعمال الكثيرة التي عكف القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي²⁰ (ت: 454هـ-1064هـ) على إنجازها والتي رغم أنها لم تصلنا جميعها ولم نقف على معظمها إلا من خلال أعمال المؤرخين المصريين، الذين ظهروا بعد عصر القضاعي، ويبدو واضحا تزايد عدد المؤرخين في القرن الرابع الهجري، لأن المؤرخين يعتبرون هذه القرن هو قرن الجغرافيا العربية أيضا بالإضافة إلى التاريخ، وقد اعتبر ذلك جزء من النشاط الذي عرفته جميع نواحي الحياة بما في ذلك مختلف فروع المعارف²¹.

أما إذا جئنا للقرنين الخامس والسادس الهجريين، فنجد أنه قد حدث للتاريخ نوع من اليقظة حيث عاد المؤرخون يزاحم بعضهم بعضاً، وكان السبب في ذلك هو تلك الأوضاع السياسية والحضارية التي حدثت للشرق الإسلامي، من التحدي الفرنجي الصليبي من ناحية، ثم هجوم المغول من ناحية أخرى، وظهور دول إسلامية تواجه هذا الخطر، وتتصدى له، وكان هذا السبب في ظهور مؤرخين كبار في مطلع هذه الفترة²².

نظرا للتطور العمراني الذي عرفته مصر منذ بناء الفسطاط ثم بناء العسكر إلى جانبها ثم بناء القطاع الطولونية ثم القاهرة المعزية وما تقلب عليها من عمران وخراب، قد جعل الاهتمام بخطط مصر ودروبها وأحيائها، ورغم أن المقريزي كان قد بلغ القمة في كتاباته في هذا المجال إلا أنه يمكن الحديث عن كتابات سابقة في هذا المجال قم بها الكندي والقضاعي، وشرف الدين أبي علي محمد بن اسد الجواني²³.

ولا شك أن من الأوضاع، الحضارية التي ساعدت على العودة إلى الاهتمام بالتاريخ واليقظة الثقافية والعلمية، تلك المدارس التي أنشأها السلاجقة في المشرق لتكون عاملاً من عوامل الحفاظ على المذهب الشافعي وتراث أهل السنة والجماعة²⁴.

أما في القرن السابع الهجري فتمثلت المهمة الكبرى للمؤرخين هو الدفاع الذاتي ضد التحدي الصليبي وتذكير المسلمين بماضيهم العظيم. فظهرت في المشرق على مدى نصف قرن سبع تواريخ عالمية، كتبها مؤرخون كبار منهم: ابن الأثير (ت: 630هـ/1233م)، وسبط بن الجوزي²⁵ (ت: 653هـ/1256م)، وابن نطيف، وابن أبي الدم (ت: 583هـ/1186م)، وياقوت الحموي (ت: 622هـ/1225م)، والقفطي (ت: 646هـ/1248م)، وابن أبي أصيبعة²⁶ (ت: 686هـ/1288م)²⁷.

وكان المؤرخون المصريون في العصرين الأيوبي والمملوكي، يختلفون في نزعاتهم ومذاهبهم، ولقد رتبهم الباحثون طبقات خمس²⁸:

- طبقة لكتابة السير الخاصة.

- طبقة التراجم العامة.

- طبقة لتواريخ المدن والبلدان.

- طبقة التاريخ العام.

وقد ظهر في مصر خلال تلك الفترة كل من "ابن العميد" و"ابن ميسر" حيث تكونا في ظل خلافة بغداد وسلطنة الأيوبيين ثم قضيا السنوات العشرين الأخيرة من عُمرهما، في ظل المماليك فمثلاً جسر الاستمرار في الفكر التاريخي ما بين عصر سياسي وعصر آخر، شكلاً من أشكال التأكيد على وحدة ذلك الفكر في منهجه ومساره²⁹.

ولم تكن القاهرة مركز المؤرخين المصريين بل مثلت الإسكندرية أيضاً قطبا مهماً في كتابة التاريخ خاصة تاريخ المدن ومن بين المصنفات التي كتبت في هذه الفترة كتاب بعنوان "رسالة في فضائل الإسكندرية" لمؤلف مجهول واشتمل على فتح الاسكندرية، والحديث عن أسوارها ومساجدها، وكتاب آخر بعنوان "الدرة السنية في تاريخ الاسكندرية" لمنصور بن سليم السكندري المتوفي سنة 674هـ/1276م، وكتاب بعنوان "فضائل الإسكندرية" لأبي على الحسين بن عمر بن الحسن الصباغ³⁰.

لقد كان القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي من أكثر القرون تأليفاً، باختلاف الموضوعات وتنوعها. وقد أحصى الدكتور مصطفى شاكر في مدة مائة عام (أي منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجري) نحو ثلاث مائة مؤرخاً كتبوا ما يزيد على أكثر من سبعمائة مؤلف في التاريخ، وقد شكل مؤرخو مصر أكثر من ربع مؤرخي المشرق الإسلامي في تلك الفترة، كما أن أعمالهم تقارب ثلث كتب التاريخ التي كتبت فيها³¹، ويمكن القول أن هذا العدد الضخم من المؤرخين ومؤلفاتهم، إنما كان نوعاً من الاستجابة للتحدي الحضاري للأمة الإسلامية ومن اليقظة ضد الأخطار التي كادت في تلك الفترة تسحق منطقة الشرق الأوسط كلها³².

ويمكن تصنيف من عمل في علم التاريخ في مصر خلال هذه الفترة إلى ثلاث فئات:

1- موظفو الدواوين: وقد اهتم هذا الصنف بأمرين هما سير الحكام والسلاطين، وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية، والتي يشكل التاريخ جانباً هاماً منها. وهكذا قدمت لنا هذه الفئة من المؤرخين مجموعة من السير السلطانية وغيرها تزيد عن 31 سيرة، كما قدمت مجموعة من الكتب بلغ بعضها من الضخامة أن أضحي موسوعات كبرى تصل العشرين والثلاثين مجلداً، ومنها: "نهاية الأرب" للنويري، ومسالك الأبصار" للعمري، و"صبح الأعشى" للقلقشندي³³.

2- علماء الدين: وكان شغلهم التاريخي يتجه بخاصة إلى التراجم وعلم الرجال، وتعليم الناشئة كل ما يتعلق برواة الحديث والحُفَظ، ويتوسعون أحياناً فيشملون باهتمامهم جميع المعاصرين من كم ساسة وكتاب وتجار وأهل تقي ونسك، وهكذا وصلت إلينا ثروة واسعة من كتب الرجال في شكل طبقات ووفيات ومعاجم، بلغت حوالي مائة كتاب في التراجم، ومائة وعشر كتب في الطبقات، ومائة وتسعة وعشرين في السير المختلفة بما في السيرة النبوية³⁴.

3- أولاد الجند: فإن أولاد الجند المملوكي الذي كان الجيل الأول منه أجنبياً على الثقافة العربية، جديداً في الإسلام، أما الجيل الثاني فقد تبني هذه الثقافة بعمق، وغلبا ما عاش هذا الجيل ميسور الحال بسبب الثروة التي تركها لهم آباؤهم، فحاولوا أن يتميزوا في الوسط الثقافي، وكان التاريخ أهون العلوم مركباً بالإضافة إلى أنه بسبب طبيعته التراكمية، قابل لإعطاء الجديد على الدوام، مع تجدد الأحداث والأيام، لذلك كان ميداناً مغرباً لأمثال "ابن تغري بردي" و"بيبرس المنصور الدواداري" و"ابن أيبك" و"مغلطاي" و"ابن دقمان" وأمثالهم، وكان اهتمامهم منصباً في غالب الأحيان على الأحداث السياسية وأخبار المعارك والسلاطين ونزعات الأمراء والحياة العامة، وبعض ما أنتج هؤلاء كان موسوعات تاريخية ضخمة وقعت في مجلدات كثيرة وصل بعضها إلى عشرين أو خمسة وعشرين مجلداً³⁵.

عنى المؤرخون المصريون خلال هذه الفترة لتاريخ مصر، وكانت النظرة الإقليمية هي السائدة، ويكمن أن نحصي أكثر من 38 تاريخاً لمصر باسمها، زيادة على بعض الأراجيز الشعرية أو شروحاتها هذا كما أحصي أكثر من ثلاثين تاريخاً في تاريخ المدن³⁶.

من هنا يمكن أن نقول أن التوجه الموسوعي الذي ظهر في هذه الفترة هو محاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها والهرب إلى تاريخ سابق رائع من واقع سيئ وفي هذا استمسك بالعمود الفقري للحضارة الإسلامية المهتدة، كي لا تنهار أمام الخطر الخارجي، وتذكير لها بالماضي الذي انتصرت فيه على كل الصعاب التي واجهتها³⁷.

ب- أهم مؤرخي العصر خلال القرن (8هـ/13م):

1- أهم مؤرخي العصر:

أ- ابن ظافر الأسدي (ت 613هـ/1216م): وهو جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي الخزرجي، ولد بمصر سنة 567هـ/1171م، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة القمحية المالكية بالقاهرة،

وعمل بعد ذلك للملك الأشرف، ولكن عاد إلى بلده سنة (612هـ / 1215م)، وتوفي بالقاهرة في منتصف شعبان سنة 613هـ/1215م³⁸.

أهم مؤلفاته:

- أخبار الدول المنقطعة: وقد رتب فيه على السنين أخبار عدد من الدول الإسلامية كالحمادية والسلجوقية والطولونية والإخشيدية وأخبار الدولة الفاطمية في إفريقية ومصر، ويمكن القول أن كتاب "أخبار الدولة السلجوقية" هو جزء من الكتاب السابق.

- وبدائع البداية: وهو يضم ألوان الحكايات التي انتشرت بعضها في كتب التاريخ والأدب كالأغاني والعقد الفريد والزخيرة والعمدة وغير ذلك³⁹.

- أخبار الشجعان ويبدو أنه كتاب تاريخي أيضا ومنه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن وله مؤلفات أخرى ضائعة⁴⁰.

ب- زكي الدين المنذري (ت 656هـ/1258م): أبو محمد عبد العظيم بن عبد العظيم بن القوي زكي الدين المنذري، ولد بمصر في غرة شعبان سنة (581هـ/1158م)، وسمع بمكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، ثم درس في الجامع الظافري بالقاهرة، وولي مشيخة الشافعية في دار الحديث الكاملة نحو عشرين سنة، وتوفي رابع ذي الحجة سنة (656هـ/1258م) بالإسكندرية⁴¹.

له عدة مؤلفات يغلب عليها تراجم رجال الحديث وأشهرها كتابه "التكملة لوفيات النقلة"⁴². يعتبر المؤرخ المنذري حافظ عصره دون منازع، وإماما وحجة ثبنا ورعا فيما يقوله وينقله، وناقدا ماهرا في علم الجرح والتعديل بارعا في علم الرجال والإفتاء، واسع الاطلاع على الأدب، ومكثرا من رواية الشعر، هذا إلى جانب الزهد والورع والتصوف⁴³. وله كتب أخرى أشهرها⁴⁴:

- ترجمة أبي بكر الطرطوشي وقد ذكره ابن خلكان (ت: 681م/1281م) في وفيات الاعيان.

- الإعلام بأخبار شيخ البخاري محمد بن سلام السلمي بالولاء البخاري البيكندي المحدث (ت: 255هـ/870م). وذكره صاحب كتاب كشف الظنون.

- تاريخ من دخل مصر، وقد نقل عنه السيوطي في "بغية الوعاة"، كما نقل عنه الكامل الادفوي (ت738هـ).

ج- المكين بن العميد (ت: 672هـ/1273م): وهو جرجيس (أبو عبد الله) بن أبي اليسر بن أبي المكارم المكين بن العميد ولد بالقاهرة سنة (602هـ/1205م) لموظف نصراني لديوان الحرب، وشغل وهو شاب وظيفة مماثلة ولما فقد ولي أبيه والي سوريا علاء الدين طبريس، حضوته لدى السلطان دعى جميع موظفي ديوانه إلى مصر فيهم أبي اليسر وابنه فوضعوا هناك في السجن وتوفي الأب سنة (636هـ/1238م)، غير ان الابن لم يلبث أن استعاد حريته ووظيفته في سوريا ، وبعد أن ثارت حوله الشبهات في سوريا ذهب على دمشق معتكفا وتوفي سنة (672هـ/1273م).

ومؤلفه يحمل اسم تاريخ ابن العميد كل عنوان المجموع المبارك والتاريخ الجامع وهو في أخبار العالم من أول الخليقة على عهد الملك الظاهر بيبرس (658هـ/1260م) فهو تاريخ عالي وقد جعله قسامين⁴⁵:

- القسم الأول من أول الخليقة إلى ظهور الإسلام اختصر فيه التواريخ وذكر ما حدث للأمم وذكر قصص الأنبياء وملوك النصارى الروم إلى ظهور الإسلام.

- القسم الثاني من ظهور الإسلام إلى سنة (658هـ/1260م) وسماه "تاريخ المسلمين" وقد ترجم كتابه إلى عدة لغات⁴⁶.

د - ابن ميسر سنة (677 هـ/1278 م): وهو تاج الدين محمد علي بن يوسف بن جنب راغب المعروف بان ميسر القاضي الفاضل توفي سنة (677هـ/1278م) والمعلومات عن هذا المؤرخ قليلة جدا وهي تذكر أنه مؤرخ فاضل وبارع له تصانيف عديدة وأنه دفن في المقطم ومن مؤلفاته في التاريخ كتاب قضاة مصر ولا نعلم شيئا عنه سوى انه كان من بين مصادر ابن حجر العسقلاني في "رفع الإصر"⁴⁷ وكتاب في تاريخ مصر أو أخبار مصر وهو تاريخ على السنين في مجلدين، ذيل به ابن الميسر على تاريخ المسيحي المتوفى سنة (320هـ/1029م)⁴⁸ وكان في إثني عشر مجلداً⁴⁹.

هـ - المفضل بن أبي الفضائل (ت: 741هـ/1341م): كتب ذبلاً باسم "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" وفيه تراجم بعض السلاطين والمماليك، و"تاريخ البطارقة اليعاقبة" و"تاريخ المسلمين في اليمن والهند والتتر".

و- ابن عبد الظاهر (ت: 692هـ/1293م): وهو أبو الفضل محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي المصري الضرير، كان كاتب الإنشاء وصاحب ديوان الإنشاء في بلاط الملك بيبرس ثم لدى السلطان قلاوون.⁵⁰

له "النظم الفائق والنثر الرائق" وقد ذكره السيوطي، و"شيخ أهل الرسل" وذكره ابن شاکر في "فوات الوفيات"، وقد جاء كلاهما بأسلوب أدبي غني بالبدیع⁵¹.
أما التراث التاريخي لابن عبد الظاهر فيتكون من⁵²:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس وهو منظومة شعرية وهو يمتد من أول سيرة إلى سنة (663هـ/1265م)، وقد اختصر شافع العسقلاني (ت 639هـ/1251م) هذه السيرة نثراً.

- "تشریف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور"⁵³ (قلاوون).

- "الألطف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية المكية الأشرفية" وهي في سيرة الملك الأشرف

خليل (ت: 693هـ/1293م). ولعلها آخر ما كتبه ابن عبد الظاهر قبل وفاته.

بالإضافة على كتب أخرى في التاريخ، وترجع أهمية مؤلفات ابن عبد الظاهر أنه حفظ لنا الكثير من وثائق العصر في صورتها الأصلية، حيث أعتبر مصدراً هاماً للكثير من المؤرخين الذين جاؤوا من بعده

الذين كتبوا عن سلاطين المماليك الأوائل ومنهم بيبرس وقلاوون والأشرف، فقد اعتمد عليه القلقشندي في "صبح الأعشى"، والمقريزي نقل عنه الكثير في كتاب "الخطط"⁵⁴.

ز - النويري: (ت:732هـ/1332م): هو أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة، الشيخ الإمام المؤرخ شهاب الدين، البكري، النويري، الشافعي⁵⁵، يعتبر النووي رأس المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي، ولد حوالي سنة 660هـ/1262م، درس بالأزهر الشريف، وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب، اشتغل في شبابه مدة في بنسخ الكتب الجليلة، وكان أنيق الخط، كان يكتب النسخة من صحيح البخاري ويبيعها بألف دينار⁵⁶، يقول ابن تعري بردي: "كان فقيهاً فاضلاً، مؤرخاً بارعاً، وله مشاركة جيدة في علوم، وكتب الخط المنسوب، قيل إنه كتب صحيح البخاري ثمان مرات، وكان يبيع كل نسخة من البخاري بخطه بألف درهم"⁵⁷.

اتصل النووي ببلاط الملك الناصر بن قلاوون، ونال عطفه وحظوته، وتقلب في عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً، كفايته وتفوقه، لكن حبه للأدب جعله يعتزل كل هذا ويتفرغ للتأليف، ويمكن القول أن النويري انقطع في الفترة الفاصلة بين 710هـ/1310م - 720هـ/1320م، إلى العلم والتأليف فأنتج لنا بعدها أول جزء من موسوعته "نهاية الأرب في فنون الأدب" سنة 721هـ/1321م⁵⁸، فقال عنه ابن تعري بردي في المنهل الصافي: "وكان يكتب في كل يوم ثلاث كراريس، وألف تاريخاً سماه منتهى الأرب في علم الأدب في ثلاثين مجلداً"⁵⁹.

لكن موسوعة "نهاية الأرب" لم تعالج الأدب فقط بل تعدته إلى التاريخ والجغرافية، والسياسة الملكية، والبيان والبديع، والأمثال والأوصاف، ويفيض بالكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب والرياضة والكيمياء وغيرها، مصممة على خمس أقسام كل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب، وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين: الأولى تشمل من الفن الأول: إلى الرابع، وتشمل عشرة مجلدات، وتشمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً.⁶⁰

لكن النويري لم يبتكر مخطط الكتاب بل اقتبس مع بعض التصرف من مؤلف معاصر له هو محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط (ت: 718هـ/1318م) الذي وضع موسوعة صغيرة عنوانها "مباهج الفكر ومناهج العبر"⁶¹.

وقد وضع النويري خطته على أساس الأقاليم الجغرافية أولاً، ثم على الأساس الزمني، من الأسرات الحاكمة، وتوسع خاصة في السيرة النبوية وفي تاريخ مصر والشام، وخاصة المماليك، وجمع مادته من مختلف المؤرخين الكبار، وحفظ لنا أحياناً كثيرة بعضاً مما ضاع من آثارهم، ومنهم ابن ميسر، والجزري، وابن السباعي، وابن الأثير، وابن واصل، وابن خلكان، وابن عبد الظاهر، والنسوي، وهنا نجد النويري المؤرخ الحقيقي فهو لا يكتفي بما يأخذ عن الآخرين، ولكن يضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته.⁶²

ح- ابن الملقن: (ت: 803هـ/1403م): وهو عمر بن علي بن أحمد بن مُحَمَّد الانصاري سراج الدِّين أَبُو حَفْص المصري الشَّافِعِي المَعْرُوف بِابْن الملقن⁶³ ، توفي أبوه وعمره سنة فندسه الناس على زوج أمه الذي كان يلحن القرآن، فعرف بابن الملقن، وإن كان يرفض هذا الاسم⁶⁴ ، اختص في علم الحديث، فجاءت جهوده ومعارفه وإنتاجه في التاريخ من باب خدمة الحديث، قال الزركلي: " من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال"⁶⁵ ، بالرغم من أنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وبرع في الفقه وفي الخط وفي الأصول وفي الإفتاء، وكان له عدد كبير من المؤلفات، يقول الزركلي في الاعلام: " له نحو ثلاثمائة مصنف"⁶⁶ ، وبعضها في مجلدات تبلغ العشرين⁶⁷ ، ومن أهمها:

1- نزهة النظر في قضاة مصر: وقد وصل فيه المؤلف إلى سنة 780هـ، ورتبه طبقة بعد طبقة، وأورد في آخره منظومات في أسماء القضاة.⁶⁸

2- إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ذكر فيه تراجم كتب ستة هم أحمد بن حنبل وابن خزيمة وابن حبال والدارقطني، والحاكم، ويبدو أن معظمه ضاع حتى أن السخاوي لم يطلع إلا على مجلد واحد منه، وقد ذكره في الضوء اللامع قائلاً "ومن تصانيفه ومما لم أقف عليه إكمال تهذيب الكمال ذكر فيه تراجم رجال كتب ستة وهي أحمد وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم، قلت: قد رأيت منه مجلدا وأمره فيه سهل"⁶⁹.

3-العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: وهو في طبقات الشافعية، من زمن الشافعي رضي الله عنه، إلى سنة 770هـ، وعدة الأسماء فيه ألف وسبعمائة، أخذ من طبقات الاسنوي وابن كثير والسبكي. وقد رتبته على ثلاث طبقات: الأولى في أصحاب الوجوه وهذه على 34 طبقة، أما الثانية فهي دونهم وفيها ست وثلاثون طبقة، والثالثة على حروف المعجم⁷⁰.

4-الاشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات⁷¹: وهو مختصر كتاب "نهاية المنهاج إلى ما استدرك على المنهاج" للإمام النووي، وقد قسمه المؤلف ثلاث أقسام: الأول في الناحية اللغوية، والثاني في الأسماء المشتركة والمترادفة، والثالث في أسماء الأماكن وتحققها في مواطنها وضبطها. بدأ في تأليفه سنة 743هـ ثم زاد عليه بقدره سنة 745هـ. ثم لم يزل يزيد حتى 758هـ⁷².

5- كتاب الصوفية: وهو في مجلد صغير جمع فيه جملة من طبقات العلماء الأعيان وأوتاد الأقطار في كل قطر وأوان.⁷³

خاتمة:

ومجمل القول فقد عرفت الكتابة التاريخية في عهد المماليك تطورا ملحوظاً، خاصة بعد تأسيس ما أصطلح عليه بالمدرسة التاريخية المصرية فنبع الكثير من المؤرخين في مختلف صنوف التأليف وأنواع الكتابة، فقد ظهرت التأليف في السير الخاصة، والتراجم العامة، وتواريخ المدن والبلدان، وكذا التاريخ العام.

الهوامش:

- 1 - عبد الله عنان، المرجع، مؤرخو مصر الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة: 1999، ص 8.
- 2 - خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ج 5، ط 15، دار العلم للملايين، 2002، ص 248.
- 3 - إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2000، ص 86.
- 4 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 87.
- 5 - مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط 1، دار العلم للملايين بيروت، 1990، ج 2، ص 133.
- 6 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 90.
- 7 - الزركلي، الأعلام، ج 3، ص 313.
- 8 - عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 9.
- 9 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 92.
- 10 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 92.
- 11 - نفسه، ص 95.
- 12 - نفسه، ج 2، ص 172.
- 13 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 96.
- 14 - آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 5، ج 1، ص 332.
- 15 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 42.
- 16 - الزركلي، الأعلام، ج 7، ص 148.
- 17 - نفسه، ج 1، ص 178.
- 18 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 98.
- 19 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 56.
- 20 - الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 146.
- 21 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 100.
- 22 - نفسه، ص 100.
- 23 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج 2، ص 173.
- 24 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 101.
- 25 - الزركلي، الأعلام، ج 8، ص 246.
- 26 - نفسه، ج 1، ص 197.
- 27 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 104.
- 28 - نفسه، ص 104.
- 29 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 106.
- 30 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 109.
- 31 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج 3، ص 98.
- 32 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص 110؛ مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج 1، ص 465.

- 33 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 98.
- 34 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص 98.
- 35 - نفسه، ص 98.
- 36 - نفسه، ص 98.
- 37 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص106.
- 38 - نفسه، ص113.
- 39 - نفسه، ص114.
- 40 - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص256؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.
- 41 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.
- 42 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص107.
- 43 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.
- 44 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص108؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.
- 45 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص109.
- 46 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص116.
- 47 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص111.
- 48 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص117.
- 49 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص111.
- 50 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص98.
- 51 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص112.
- 52 - نفسه، ص 113.
- 53 - محمد بن شاكر بن أحمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973، ج2، ص179.
- 54 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص114.
- 55 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص381.
- 56 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.
- 57 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص381.
- 58 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.
- 59 - يوسف بن تغري بردي بن عبد الله أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص381.
- 60 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص72.
- 61 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.
- 62 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص122.

- 63 - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، 2002، ص57؛
إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي
بيروت، ج1، ص792.
- 64 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.
- 65 - الزركلي، الأعلام، ج5، ص57.
- 66 - نفسه، ص57.
- 67 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.
- 68 - نفسه، ص120.
- 69 - السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص102.
- 70 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.
- 71 - الباباني، هدية العارفين، ج1، ص791.
- 72 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.
- 73 - نفسه، ص126.